Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويشعر بالألفة مع الأموات، ولا يعرف سبباً للخوف ممن يعود منهم. أما الدكتور سامح فيشخص حالة علي: "هذه الوجوه التي تسكنك ما هي إلا ظلال لشخصيات تحبها أو تكرهها.. شخصيات سبق وعرفتها. عليك أن تعرف وجوهاً أخرى بحيث تطردها متى تشاء، لا أن ترسخ في ذاكرتك وتسجنك".

إلى ذلك تتألق حكاية هدبا -خالة علي- كما تألقت حكاية نهر الشحادة في قسط عليا. فقد زوج الأب الفقير ابنته في الخامسة عشرة من الأمير الذي قضم ثديها في يومها الأول -لنتذكرْ ما قال نزار قباني في ذلك - وبنى لأبيها قصراً، وصار الأب باشا ثم مزاراً بعد وفاته. لكن هدبا هربت وتاهت في الصحراء ثم عادت إلى (سيانو) لتقتل أباها أي جد علي -وليس جد هدبا كما تاهت ذاكرة الكتابة ص 67- ولتتوحد في عين علي بعليا، فهدبا أيضاً امرأة من ظل وضوء، وعلي لايعرف إن كانت حقيقة أم خيالا.

بالإضافة إلى مامضى تشتغل الرواية على معنيين آخرين للتحول، أولهما يتصل بالأسطورة والتاريخ القديم، والآخر بالراهن. فالرواية تصدعنا بالجذور الممتدة من بعل إلى سلوقس إلى عبادة بن الصامت الأنصاري إلى زبيل ابنة أرواد إلى عنت أخت بعل إلى مردوك وجوبيتر ويم وموت وهيرا وعريب ونقمد وتشوب وتلبينو وأرتميس وهدد... فتكتفي مرة بالإشارة، وتثقل مراراً بالشرح، فيبدو الأمر غالباً تزويقاً أو استعراضاً، ويندر أن ينسرب في النسيج السردي للرواية أو في النسيج الروحي والفكري للشخصية.

أما البعد الثالث للتحول فيتصل بالراهن الروائي والمرجعي، وفيه تتأثر مفردات الحياة اليومية، وبخاصة الثقافي والسياسي منها. فالشخصيات الفاعلة ها هنا مثقفة. أما من ينتسب إلى غير هذه الدائرة فحضوره محدود مرهون بحضور المثقف أو المثقفة (أم عارف مثلاً).

لقد وقعت عليا منذ عادت من باريس في دوامات الكآبة والحيرة والانشطار، فالغرب كما تقول نزع أفكارها ونزع أفكار سعاد، بينما علي الذي عرف أوروبا قليلاً نزعت الكتب أفكاره. وفي الجامعة تواجه عليا الفساد، فإذا كانت قد رفضت الخضوع لضغوط زعرور باشا والإدارة، ولم تتراجع عن ضبطها لمخالفة سوزان بنت زعرور باشا، فقد عوقبت بالنقل إلى إدارة أخرى، حيث لاعمل لها. وها هي زميلتها القديمة رندة تغدو راعية الأدب والثقافة في المدينة، بفضل زوجها منصور باشا. وها هي أيضاً سحر صاحبة المرسيدس تتهيأ لنيل الدكتوراه في التاريخ بفضل زوجها بهجت..